11

أمير النسانيس !

قال سندباد :

استمر النسانيس يجرون ونحن في أثرهم لا نكف عن الرمي، وصعدوا تلًا فصعدنا وراءهم، ثم انحدروا إلى سهلٍ فانحدرنا، فإذا مئات منهم متجمِّعون في حلقة، وفي وسط الحلقة مجلس، وفى صدر المجلس نسناس منهم له وقار وهيبة واحترام؛ فلما وقع عليه نظر الشيخ قال لي: إن صح ظني يا سندباد فهذا أميرهم، فصوب إليه سهمك!

ثم صوب سهمه وصوبت؛ وكان الهاربون ما يزالون يجرون، لم يصلوا إلى تلك الحلقة بعد ولم يُخبروا أحدًا بما رأوا من الويل . . .

وأطلقنا ولكنَّ السهمين أخطآ الهدف، فلم يصيبا الأمير وأصابا اثنين من بطانته؛ فهاج الجميع وماجوا، واتجهوا بأنظارهم إلينا ولكن أنظارهم وقعت على الهاربين قبل أن تقع علينا، ثم رأونا، فوثبوا إلينا كأنما يطيرون طيرانًا، فقلت لنفسي؛ جاء الشر الأكبر!

واستدرت على عقبي لأهرب؛ ولكن الشيخ صاح بي غاضبًا اثبت واضرب؛ لابد أن نُبيدهم !

ثم صوَّب سهمه، وأطعته فصوَّبت سهمي، وأصابت رميته ورميتي معًا، ولكن رميته كانت أفدح إصابةً؛ فقد أصابت صدر الأمير . . .

وكنت أظن أنهم سيهجمون علينا ثائرين إذا رأوا أميرهم قتيلًا، ولكنهم لم يهجموا . . .

وكان الشيخ يظن أنهم سيفرون مخذولين إذا رأوه قتيلا، ولكنهم لم يفرُّوا كذلك . . .

لم يثوروا فيهجموا، ولم يجبنوا فيفرُّوا، بل وقفوا في أماكنهم هادئين برهةً، ثم استداروا حول القتيل حلقة، ثم ركعوا حتى كادت رؤوسهم تمس الأرض، ثم انتصبوا كما يقوم عود من القصب مالت به الريح، ثم ارتفع بينهم صوت رقيق كأنه غناء، ثم امتزجت ألحانهم في نشيد جماعي مؤثر، ثم رأينا اثنين منهم يتجهان نحونا وقد انحنى رأساهما إلى الأرض . . .

حدث كل هذا ونحن ننظر إليهم صامتين، ولا نكاد نفهم لتلك الحركات معنى . . .

فلما رأيت ذينك النسناسين يتجهان نحونا، عاودني الخوف بعد اطمئنان، فهممت أن أجري؛ ولكن الشيخ أمسك بي قائلًا: انتظر ولا تخف !

فانتظرتُ والخوف يملأ نفسي؛ فلولا حرصي على طاعة الشيخ لفررتُ وتركته . . .

ثم لم يلبث النسناسان أن وصلا إلينا، فانحنيا بين أيدينا باحترام، ثم استقام عودهما وظلا صامتين برهة، ثم نطقا، لم أفهم من منطقهما حرفًا، ولكن الشيخ فهم قولهما على ما أظن، فقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة؛ ثم قال لي: انا أمير النسانيس منذ الساعة يا سندباد !

فلم أفهم مغزى كلامه، ولكني لم أجد فرصةً لأستوضحه، فقد أشار إلى النسناسين فسبقانا على الطريق، ومشينا وراءهما إلى حيث كان الأمير القتيل ملقى على الأرض .

وقال لي الشيخ ونحن نسير وراء النسناسين : لقد فهمتُ هذا منذ رأيتهما قادمين نحونا !

قلت مستوضحًا : ماذا فهمت ؟

قال : إنَّ من عادات بعض الشعوب الهمجية إذا قُتل أميرها؛ أن تدين لقاتله بالولاء وتجعله أميرها!

واسترسل يقول ضاحكًا : فأنا أمير النسانيس منذ الساعة، فاحسب حسابي إن كنتَ تريد النجاة بنفسك يا سندباد !

قلت : فأنا أحسب حسابك قبل أن تكون أميرًا، أما الآن . . .

قال : أما الآن فإنك لابد أن تكون أدق حسابًا وأكثر طاعة، وإلا خلعتُ نفسي وزعمتُ لهم أنك قاتل أميرهم، لتكون أمير النسانيس !

وكنا قد وصلنا إلى الحلقة، فانفرج النسانيس صفين وفسحوا لنا بينهما طريقًا، وقد حنو رؤوسهم احترامًا، فمشينا بين الصفين حتى وصلنا إلى حيث كانت جُثَّة الأمير القتيل، فانحنى عليه اثنان منهم فخلعا عنه جبته وتاجه، ثم جعلوهما على جسم الشيخ، ووضعوا في يده عصًا ذات شعبتين، هي صوَلجان الأمير؛ ثم استداروا حولنا راكعين وهم يرددون نشيدًا حماسيًا لم أفهم منه كلمةً ولكني أحسست معناه . . .

وكانت تلك الحركات وذاك النشيد هي كل مراسم التولية؛ فلما فرغوا منها، انفرجت الدائرة صفين كما كانت وانفسح بينهما طريق فمشينا فيه وقد خمَّنت أنهم ذاهبون بنا إلى قصر الإمارة !

وكان تخميني صحيحًا، فلم نلبث أن وصلنا إلى بناء كالذي وصفه باقر، فهمست في أذن الشيخ: من أي أبواب القصر تدخل يا أمير ؟

قال : ماذا تعنى ؟

قلت : إن باب القصر – كما علمت – لا يمكن أن يتسع لك، فاحسب حسابك قبل أن تتحشر في الباب مثل حَشْرة باقر !

فهز رأسه قائلًا : صدقت، وإنك منذ الآن لجدير بأن تكون وزير الأمير ومستشاره؛ فبماذا تشير يا وزير النسانيس؟

قلت ضاحكًا : إن وزيرك لا يشير عليك بالرأي قبل أن تجلس على عرشك !

قال : فليكن عرشي هنا، في هذا الفضاء الفسيح !

ثم وقف ورفع العصا ذات الشعبتين في يده، فوقف النسانيس وخرُّوا بين يديه ساجدين . . .

ولم يكن الشيخ يعرف ماذا يفعل بعد ذلك ولا ماذا يقول؛ فلما رآهم ساجدين بين يديه قال لي: أراهم لم يسجدوا إلا طاعةً لإشارتي إليهم بالعصا، وما أظنهم يجرؤون على أن يرفعوا رؤوسهم قبل أن آذن لهم؛ فلنتركهم ساجدين ونمضى إلى حيث نشاء، فلن يتبعونا !

قلت : وهل تظن انهم يظلون ساجدين بعد أن نذهب عنهم ؟

أما أنا فلا أظنهم يبقون إلا لحظات، ثم يرفعون رءوسهم وإن لم يُؤذن لهم !

قال : فماذا ترى أن نفعل يا وزير ؟

قلت : إذا كانت إشارة العصا هي الأمر كما ظننت، فأشر إليهم أن ينصرفوا عنا، لنمضي إلى حيث نشاء !

قال : ثم ماذا ؟

قلت : ثم نذهب إلى باقر وأبى الإسعاد، لنتدبر أمرنا جميعًا ونُحكم حيلتنا للخلاص . . .

قال : فلنجرب !

ثم رفع الشيخ عصاه وهتف بالنسانيس قفوا !

فرفعوا رءوسهم، ثم استداروا حوالينا حلقة؛ فمضى إلى جانب من الحلقة ومضيتُ إلى جانبه؛ ثم رفع العصا مرة أخرى فانفرجوا صفين ورؤوسهم ناكسة إلى الأرض، فمشينا بينهم حتى خرجنا إلى الخلاء الفسيح، وأشار الشيخ لهم أن يتبعونا . . .

وكان هذا مخالفًا لما اتفقت عليه مع الشيخ؛ ولكني لم ألبث أن عرفتُ أين يقصد، إذ رأيته يُصعد في الطريق إلى الشاطئ . . .

وارتقى الشيخ صخرةً عاليةً تشرف على الماء، وأشار إليهم حتى تجمَّعوا فوقها، ثم رفع العصا فخرُّوا سُجَّدًا؛ فمال على أذني هامسًا : الآن نستطيع أن نفعل شيئًا لتخليص الدنيا من هذا الجنس الشرير !

ثم انحدر عن الصخرة مسرعًا وانحدرت وراءه حتى هبطنا إلى بطن الوادي . . .